... وبعدنا الطوفان

قصة بقلم سليمان فياض

— ١ —

طرق الحائط مصراعا النافذة ، فرن الصوت في الحارة ، وسقط ضياء الشمس على حصير الغرفة ، وتدفق زياط أطفال في آذان النائمين، وتململ علي غنيم في رقاده ، وارتجفت عينا طفل نائم ، وحاول فتحهما ، لكن الضوء كان باهرا ، فاخذ يبكي زاما حاجبيه . وابتعدت سميحة عن النافذة ، ونادت :

ـ علي .. اصح ياعلي .

واخذت سميحة تكرر نداءها لعلي ، والطفل مازال يولول ، كان علي يحس انه نائم في بئر ، لكنه فتح عينيه ، وجلس ، وتثاءب ، وتمطى ثم سكن محتضنا ركبتيه بذراعيه . وحدق في ساعديه بلا معنى . في ارض الغرفة كانت حصير ، ووسادة . وبجانب الباب ، كانت بضعة كراكيب : مكنسة ، ومصباح ، وموقد ، وأشياء اخرى . وكانت الجدران الطينية منقوشة بآثار مسامير ، وبقايا سوداء لدماء حشرات .

وحملت سميحة برعى ، فكف عن البكاء ، واخرجت ثديها ، وألقمته حلمته ، فراح الطفل يمصه بصوت مسموع . وقال علي بكسل :

ـ اين الاولاد ؟

فقالت سميحة ، وعيناها ترفبان فم برعى :

ـ يلعبون في الشارع .

تنهد علي ، وقال :

ـ هيه .. الن نفطر ؟

اخرجت سميحة صوتا ساخرا من فمها ، وقالت :

ـ ليس لدينا خبز .

وصمت الاثنان زمنا . قالت سميحة وعيناها ساهمتان :

ـ لم يعد ابننا برعى يجد عندي لبنا .

واضافت ، وهي تمد يدها :

ـ ساكمل له رضعته ماء .

وتناولت يدها كوبا من الصفيح . وراحت تسقي برعى . ووضعت الكوب بجانبها ، وأرقدت برعى ثانية ، فراح يحرك يديه وساقيه وفمه مغلق . وزفرت سميحة ، وقالت :

ـ اف ... الدنيا حر .

ومدت يدها ، وتناولت الكوب ، وراحت تشرب . وكانت حبات عرق تتفصد على جبينها وخديها . وقالت بعد :

ـ سي علي .. ألم تدبر لنا ربع جنيه نشتري به ذره ؟ .. سنموت من الجوع . ولن يستمر احد في اعطائي خبزا وغموسا .

فقال علي ، وهو يعض شفته السفلى :

ـ ساحاول ، ساذهب الان الى عم عليوه ، واقترض منه .

هزت سميحة رأسها ، ونبرت بذات الصوت الساخر ، قائلة :

ـ هم .. عم عليوه ؟.. هم .. أليس من احد اخر ؟

تنهد علي بضيق ، وانتفض واقفا ، وغادر الغرفة . ومرق من صالة ضيقة . واجتاز عتبة الباب الى الحارة .

— ٢ —

توقف علي عند راس الحارة . رأى اولاده يلعبون ، تفكر لحظة . ثم نادى :

ـ احمد .. حسن .. خليل .. تعالوا هنا .

اسرع الاولاد قادمين نحو ابيهم . كانوا يلبسون قمصانا قذرة من دمور . وكانت طبقة من تراب قد صارت رانا من جلدهم . كانت وجوههم ضامرة . لكن عيونهم مازالت تشع مرحا . ونظر علي الى اولاده . ثم قال لهم :

ـ لا .. لاأريدكم .. اذهبوا ، والعبوا .

نظر الاولاد الى بعضهم ، ثم الى ابيهم ، وعادوا الى رفاقهم . وعلا صياحهم في الحارة .

« لا .. ما الفائدة من ارسالهم الى الناس . لن يعطيهم احد »

قال علي ذلك لنفسه ، ومضى . وكفاه معقودتان وراء ظهره . وتذكر صديقه منسى .

*

قابل علي صديقه في الشارع ، فقال من غير بهجة :

ـ صباح الخير يامنسى .

فقال منسى :

ـ صباح الخير .

واردف :

ـ ماذا بك اليوم ؟

ـ لا شيء

ـ انت مهموم اليوم ، على غير عادتك ؟

فقال علي :

ـ قل لي يامنسى : كيف اجد ربع جنيه الان ؟.. ليس في بيتي خبز منذ يومين .

بان الغم على وجه منسى ، وقال :

ـ ليس من مليم في جيبي . لكن . اقول لك ، اذهب انت الان . وابحث عن رزقك ، لاتحمل هم البيت اليوم . ساحمل لهم خبزا وغموسا .. من بيتي .

فهز علي رأسه ، وقال :

ـ نحن صديقان يامنسى ، لااعرف ماذا اقول لك .

قال منسى متضاحكا :

ـ لايهمك ، نحن صديقان

وسكت منسى ، ثم اضاف :

ـ اسمع ، اذهب الى اخي الحاج عليوه ، قد يعطيك قرضا . وقد يكون لديه عمل لك اليوم .

هز علي رأسه بأسف ، واخرج صوتا ساخرا من أنفه ، وقال :

ـ هم .. الحاج عليوه ؟.. انت تعرف !!

والتقت عيناهما . وفهم منسى .. لكن علي مالبث ان تنهد قائلا :

ـ هيه .. ساذهب على اي حال ، ساذهب

وادار ظهره لمنسى ، وعاد يعقد كفيه وراء ظهره ، وأوغل مبتعدا في الشارع ، ثم انعطف .

*

كان الحاج عليوه جالسا خلف منضدة ،تسد باب دكانته . وبدا لعلي في جلسته قصير القامة كما هو ، وعيناه الزرقاوان تنظران اليه في مكر . ووضع علي مرفقيه وساعديه على المنضدة ، وقال بمودة :

ـ صباح الخير ياعم الحاج .

فقال عليوه بحذر :

ـ صباح الخير يابني ، خيرا .
قال علي بصوت هامس :
ـ جئت لك من اجل ربع جنيه ، كقرض ..
واضاف :
ـ لقد قصدتك .
فقال عليوه بحذر اكثر :
ـ ربع جنيه ؟.. لم تعمل لي شيئا ، حتى تأخذ اجرا .
ـ اني اطلبه كقرض ياعم الحاج ، سأدفع الفائدة التي تطلبها ، عندما ارده .
فقال عليوه باستغراب
ـ عندما ترده ؟.. من أين سترده ؟
قال علي :
ـ عندما اعمل عندك ، او عند أي احد اخر في البلدة ، وآخذ اجرا على هذا العمل .
فقال عليوه :
ـ لكنك ستحتاج الى هذا الاجر ايضا .
حرك علي يديه بانفعال ، وفتح كفيه ليناقش عليوه ، لكنه قاطعه قائلا ، وعلى شفتيه بسمة فاترة :
ـ لا .. لن تستطيع توفير هذا المبلغ ، في أي يوم .
شعر علي بدوار في رأسه ، وقال بأسى :
ـ لم اقصد سواك ياحاج عليوه .
فقال عليوه بفتور :
ـ ياعلي ، يا ابني ، انا لم امنعك من ان تقصد احدا اخر .
وفكر علي انه ليس من احد اخر يمكن ان يقرضه . فكر على اسنانه وقال بغيظ :
ـ دعني اعمل لك اليوم ، وغدا ، وبعد غد ، بدون اجر . فقط ، اعطني ربع جنيه .
واضاف :
ـ ليس في بيتي خبز ياعم الحاج .
فقال عليوه بلهجة حاسمة :
ـ ليس لدي عمل ، لا اليوم ، ولا غدا ، ولا بعد غد .
احس علي ان دمه يغلي. وفكر ان ليس له من منفذ اخر ، سوى ان يعطيه الحاج عليوه . فقال مهتاجا :
ـ لكنني احمل براميل الجاز الى سقف دكانتك ، واحمل البضائع دائما من المدينة الى هنا . وانا محتاج لك اليوم ياحاج عليوه !!

.. أقبل ممدوح ، ابن عليوه ، من باب الدكان المواجه ، وفتح درجا في المنضدة ، ولم ينبس ابوه بكلمة ، كانت عيناه مركزتين فقط على يدي ابنه ، واخرج ممدوح ورقة بربع جنيه ، ودسها في جيب بنطلونه ، فقال عليوه لابنه :
ـ لمن هذه النقود يابني ؟
قال ممدوح بلا اكتراث ، وهو يدير ظهره :
ـ سأذهب اليوم الى السينما في المدينة .
وانسل ممدوح من باب المنضدة المجاور لعلي ، وغاب عن اعينهما. وتنهد عليوه ، وقال بأسف :
ـ انت ترى بنفسك ، انه يتعلم في المدرسة ، ويحتاج لنفقات .
واضاف بأسف :
ـ انت ترى بنفسك ، ليس لدي ماأعطيك منه . انت ترى .
قالها عليوه وهو يفتح كفيه دلالة على عجزه ، فقال علي بحزن :
ـ بل لديك ماتعطيني منه ، كقرض ، ياحاج عليوه .
وتزايد غضبه ، فصمت ، زاما شفتيه ، وهز رأسه عدة مرات . ثم راحت الكلمات تنفجر من فمه :
ـ لكنك مراب قذر ، تقرض من يملك رهنا ، وتبيع بضاعتك في السوق السوداء : الجاز ، والسكر ، والقمح ، وكل شيء .. كل شيء.
فقال عليوه ساخرا :
ـ أتريد ان اقرض من لايملك رهنا ؟.. هل تتصور ذلك يحدث مني؟
لم يفكر علي فيما يقوله . وانما اضاف من بين اسنانه :
ـ لولا ان منسى صديقي ، لولا انه اخوك .. لاحرقت لك دكانتك هذه ، بكل مافيها من جاز .
وانصرف علي حاقدا ، وكان عليوه مايزال ينظر اليه مبهوتا .

ـ ٣ ـ

كانت سميحة تجلس على الحصير ، تسند خدها على قبضة يدها. وكان برعي قد نام . وأمامها ، عند الباب ، كانت بقايا خبز وجبن قديم. وكان ضوء الشمس قد صعد الحائط وراءها وتضاءل .
وأحست سميحة ان احدا يقف على باب الغرفة . ولم تكن قد سمعت خطوه .. فرفعت عيناها الى الباب . وشبت واقفة مكانها . كان ممدوح واقفا في مدخل الباب ، كان يلبس بنطلونا وقميصا ، وشفتاه ترتجفان وتبرقان خلال غلالة من ندى ، وعيناه تضجان رغبة تحت حاجبيه الكثين . قالت سميحة :
ـ ممدوح ؟.. ماذا تريد ؟
نظر ممدوح الى سميحة محدقا ، وبانت في عينيه فارعة ، ممتلئة العود في ثوبها الاسود ، ووجهها الاسمر مستدير ملتهب الخدين ، وصدرها نافر ، وعيناها واسعتان ، خائفتان . قال ممدوح باسما :
ـ جئت لاراك الليلة ، في الحقل ، بين الغاب .
قالت سميحة بذعر :
ـ بين الغاب ؟
فقال ممدوح ، وقد زاد اتساع عينيه :
ـ ولم لا .. مثل المرة الفائتة .
قالت سميحة :
ـ لن تكون هناك مرة اخرى ، كنت مضطرة . و .. أخطأت ، اذهب
قال ممدوح :
ـ واليوم ؟
وفكر ، ثم قال :
ـ جاء زوجك اليوم الى ابي ، طلب ربع جنيه من أبي ، ففتحت درج النقود امامهما واخذت ربع جنيه .
واضاف :
ـ انا اعلم انكم في حاجة الى خبز
فقالت سميحة :
ـ وجئت تعطيني النقود ؟
ـ نعم .
ـ دون مقابل ؟ أم قرضا ؟ أم ..
قاطعها ممدوح متوسلا :

كتـابان خطيران

عارنا في الجزائر — لجان بول سارتر

الجلادون — لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب

ـ سميحة ، انت تعرفين انني أحبك .

تذكرت سميحة ان رائحته نظيفة ، وفكرت ان لها اربعة اولاد ، وزوجا ، وانها تسقط مع الايام . وشعرت بندم ، فعضت شفتها السفلى . وقالت :

ـ لا ، اذهب ، اليوم ، جاءنا عمك بحيز وجبن ، لسنا اليوم في حاجة ، اذهب .

قال ممدوح ماكرا :

ـ خذي النقود اذن ، ولا تأتي .

قالت سميحة ، وقد لحظت مكره :

ـ لا ، ضع نقودك في جيبك .

قال ممدوح مندهشا :

ـ سميحة ، وغداً ؟

قالت سميحة ساهمة :

ـ غدا ؟.. غدا له حل ، اذهب واقرض الناس بالربا مع ابيك . اذهب .

لم يتحرك ممدوح ، ظل ينظر اليها غير مصدق ، فقالت من بين اسنانها بغيظ :

ـ امش . لو رآك علي هنا ، لقتلك .

واضافت قائلة بلهجة آمرة :

ـ ستجده في المقهى ، قل له ان يأتي ليتناول فطوره .

انفتل ممدوح عائدا على الاثر ، وأسرعت سميحة خلفه ، وأغلقت باب البيت ، وعادت وجلست على الحصير . وفكرت ساهمة ، انه سيذهب الان ، ويجلس مع علي والناس ، ويتحدثون كثيرا في ود . وحين يغادرهم علي ، قد يحدثهم عن « ... » هذا الصبي .

ـ ٤ ـ

كانت واجهة القرية تطل على قناة ماء واسعة ، وبينهما شريط الدلتا . وفوق القناة ، كانت قنطرة صغيرة من الخرسانة . وعلى الضفة الاخرى ، كان الطريق الزراعي . وعلى حافة الطريق الغربية كان المقهى والمطحن ، تحدهما المزارع من ورائهما . وناحية الشمال كان سور الصمار ، وأمامه اشجار الكازورين ، على مسافات متباعدة .

اقبل علي غنيم ، وعبر القنطرة ، عاقدا يديه وراء ظهره ، التفت نحوه رواد المقهى عند كل منفذة . كان علي يلبس ثوبه القصير ، نصف النظيف ، وكان شعر صدره كثا مجعدا بين فتحة ثوبه ، وملامح وجهه تبدو كأنها قد نحتت لتوها من صخرة سمراء ، وقدماه تبدوان حافيتين ضخمتين ،فوقهما ساقان قصيرتان فتيتان ، كساقي تمثال لفلاح.انتظرت كل فئة في المقهى ان يتجه نحوها علي غنيم . لكن علي سار نحو مقعد ناء عند المطحن في الجنوب ، وحمله في كفه بخفة كعصاة . وسار شمالا ، وجلس امام سور الصمار الجاف ، تحت شجرة كازورين ، في ظل الضحى

عادت رؤوس رواد المقهى تتجمع على المناضد . وبدا كل شيء هادئا ، بينما كان ظهر علي منحنيا ، وكفاه معقودتين حول ركبته ، ورأسه تنظر الى الارض مطرقة . وفكر علي ان شباب القرية يريدونه الان ، ليضحك معهم . وتأكد لديه الساعة انهم يريدونه دائما كي يسليهم ، وانهم سيختبئون داخل عيونهم ، لو انه طلب من احدهم قرضا . وشعر بغضب في نفسه على الناس ، وود لو تنهد بقوة ، فانشق صدره نصفين.

*

أتى ممدوح ، عبر القنطرة ، والطريق الزراعي ، واضعا يديه بأناقة في جيبي بنطلونه . وجالت عيناه حوله ، باحثتين عن علي غنيم ، فرآه جالسا وحده . وتحسست يمناه الورقة في جيبه ، وقد احس بالذنب. وفكر ممدوح ان يذهب اليه ، فخطا نحوه خطوتين ، وتردد ، ووقف في مكانه . وتخيل عيني سميحة ساخرتين ، حين يعطيها علي الورقة ، قائلا انه اخذها من ممدوح . وعدل عن الفكرة ، وتذكر ان يقول لعلي انزوجته تريده لبفطر . لكنه لم يحس بخير . فاستدار ، وجلس مع جماعة تلعب الدومينو ، امام باب المقهى . ثم نسي عليا وسميحة ، وتحمس لاحد اللاعبين .

*

جاء منسى ، وبحثت عيناه عن صديقه علي . كان متأكدا انه اللحظة جالس على المقهى . واذ رآه جالسا وحده ، تناول مقعدا ، وسار به نحو علي ، ووضع مقعده بجواره ، وجلس صامتا ، ثم قال لعلي :

ـ لانهتم . في بيتك طعام اليوم . اذهب وافطر .

حرك علي رأسه الى أعلى ، غير مكترث بفطاره ، واخذ ينظر الى منسى بامتنان ، وشفتاه مغلقتان ، وفكر منسى ان علي هو صديقه الحقيقي ، في قرية ظالم اهلها . وراح ينظر محدقا في صديقه باعجاب، وقد تأكد لديه ان الرجل الحقيقي تعس بين الناس . وارتعب منسى حين دار بخاطره ، ان الرجال الصالحين نادرون ، وقصيرو العمر ، وعلي واحد منهم . وأسند منسى ذقنه الى قبضتيه ، واخذ ينظر الى الارض شارد البال . وراحت انغام خفية ، وادعة ، وحزينة ، تتدفق في قلبيهما، عالية فوق ضجة المقهى ، وغبار السيارات ، وقطار الدلتا ذي الصرير .

ـ ٥ ـ

من الجنوب ، يقبل الشيخ بهلول على مهل ، متكئا على عصاه . وبين حين واخر يرفع كفيه ، ويضغط بهما على الشال الذي يعتم به . كان يلبس عدة ثياب ممزقة . وكان عددها يدأري مابها من خروق . واقترب الشيخ بهلول من المقهى ، فأخذ يدق الارض بعصاه ، منبها الجالسين ، ناصبا ظهره المحني ، ودون ان يحيي أحدا ، قال للجميع :

ـ عمي . اعطني مليما .

فأخرج ممدوح قرشا من جيب قميصه ، وناوله اياه . وتحسس الشيخ بهلول مااعطاه ، فوجده مثقوبا ، فقال وهو يمد يده :

ـ لا . ليس هذا مليما ، أعطني مليما .

فقال ممدوح :

ـ ياشيخ بهلول ، القرش اكبر من المليم .

قال الشيخ بهلول محتجا :

ـ لا ... ليس هذا مليما . المليم يكفي .

ومع ان الطريق امام المقهى كان ظليلا ، فقد وضع الشيخ بهلول كفه فوق عينيه ، وحدق ناحية علي ومنسى . واذ ابصرهما ، تألقت تقاطيعه الهرمة ، وسار نحوهما ، وقال لعلي :

ـ خذه انت ياخال .. وهات مليما .

قال علي نصف ضاحك :

ـ لا مليم معي ياشيخ بهلول ..

فقال الشيخ بهلول :

ـ خذه الان .. وعليك لي مليم . تذكر ان عليك مليما .

واستدار الشيخ بهلول لينصرف ، لكن منسى قال له :

ـ اسمع ياشيخ بهلول . لماذا تسكن مقبرة ، وانت مانزال حيا ؟

فقال الشيخ بهلول :

ـ اه . المقبرة ؟ كلنا سنسكن فيها . كلنا . كلنا . كلنا .

واخذ يرددها مؤكدا وهو يبتعد .

كان الاولاد يلعبون فوق القنطرة ، وحين رأوه ، علا صياحهم ، وراحوا يضربونه عابثين على قفاه ، وصرخ الشيخ بهلول مستنجدا :

ـ ياخال علي .. ياخال علي .

وصاح علي غنيم ، كعادته ، دون ان يبرح مكانه :

ـ جاي ياولد .. جاي

واسرع الاولاد بالهرب ، كعادتهم ، كلما زعق علي غنيم . ومضى الشيخ بهلول ، طارقا الارض بعصاه .

ـ ٦ ـ

اقبل الحاج رجب من القرية مسرعا . وظلل عينيه بكف يسراه ، وحدق باحثا في الضفة الاخرى ، وهو يحرك فكيه المتهاوين بقلق . واذ أبصره جالسا تحت شجرة الكازورين ، صاح بصوت رفيع كالمثقاب :

ـ ياعلي .. ياعلي ياغنيم .

واسرع الحاج رجب يعبر القنطرة ، بينما رفع علي ومنسى رأسيهما على الصوت . وهبا واقفين سعيدين بالحاج رجب . وقال الحاج رجب وهو يقترب :

ـ انني اريدك ياولد يا علي .

فقال علي بادب :

ـ انا تحت أمرك ياعمي الحاج ، لكن ، تفضل ، اجلس .

وصفق علي مناديا جرسون القهى . كان واثقا ان المقهى هو المكان الوحيد في القرية ، الذي يقدر ان يأخذ منه مايشاء ، الى حين ، لكن الحاج رجب منعه قائلا :

ـ لا .. ليس هذا وقته ، اذهب وهات العربة ، وقابلني امام بيتي.

فقال علي :

ـ خيرا ياحاج ؟

اجابه الحاج رجب :

ـ ستحمل شوال أرز ، وتسلمه في دمياط الى موبيليات العيسوي، لديهم سيارة مسافرة بعد ساعتين الى القاهرة .

وسأل منسى بفضول :

ـ الارز لابنك ياعم الحاج ؟

فقال الحاج نصف ضاحك :

ـ طبعا ياولد يامنسى .

ومع ان صوت الحاج رجب ، كان ثاقبا كالصراخ ، الى حد يثير الضحك ، فقد التهب علي حماسا للعمل ، وأحس انه سينال أجرا ما . وعدا نحو القرية ، ليحضر عربة ذات عجلتين . والتفت منسى والحاج رجب يرقبانه ، وهو يعدو عبر القنطرة .

*

قال الحاج رجب لمنسى :

ـ هيا بنا ننتظره ياولد يامنسى امام البيت .

كان الحاج رجب مهتاجا ، بسبب شوال الارز الذي طلبه ابنه الموظف في القاهرة . وقال منسى :

ـ عم الحاج ؟

التفت نحوه الحاج رجب ، وانتظر ، وأضاف منسى قائلا :

ـ عم الحاج . علي مازوم هذه الايام . ليست لديه ذرة . حملت له من بيتي طعام اليوم .

فقال الحاج رجب متغابيا :

ـ خيرا فعلت .

واضاف منسى ممهدا :

ـ ورشة النجارة التي أعمل بها ، لاتجد زبائن هذه الايام . لذلك لااجد نقودا لاساعده بها .

فقال الحاج رجب بقلق :

ـ لكن ، ماذا تريد مني ان افعل ؟

قال منسى راجيا :

ـ يعني . أعطه ربع جنيه ، ليشتري ذرة لاولاده.

فتح الحاج رجب فمه ليصرخ ، محتجا بصوته الثاقب. لكن منسى أسرع قائلا :

ـ سيكون ذلك قرضا . سأضمنه لك بنفسي. صدقني يا عم الحاج.

فصرخ الحاج رجب في وجهه:

ـ ليس لدي ما أعطيه . أنت تعرف ، يا ولد يا منسى ، أن ورائي اسرة لا تبقي على شيء .

ولهث الحاج رجب مجهدا . ونظر الى منسى في يأس ، وانصرف وحده ، عائدا . وتبعته نظرات منسى الغاضبة . وفكر منسى أن يلحق بعلي ، ويمنعه من حمل الارز ، لكنه عاد يفكر ، أنه سيحرم من أجر النقل ، وأن شيئا خير من لا شيء .

ـ ٧ ـ

كان علي غنيم عائدا بعربته من المدينة . واذ عبر قنطرة على القناة المؤدية الى قريته ، انطلق يجر العربة وراءه ، كحصان جامح . كان علي مبتهجا بين ذراعي العربة ، فدفء العمل قرب الظهيرة يبعث النشوة، وكان يحس بعد بملمس القروش الخمسة التي قدر انه سينالها أجرا. ولم يلبث علي أن راح يجر العربة معه ، وهو يعدو يمنة ويسرة ، في حركات راقصة .

كان علي قد بلغ منتصف الطريق . وأحس بالتعب ، فطامن من عدوه ، حتى سار هادئا . واقبلت سيارة السريع كالشهاب ، ومرقت بجانبه ، ولفحته بغبار ساخن . وفكر علي أن له عمرا هذا اليوم، فالسيارة كانت ستدوسه لو ظل يعدو راقصا ، وعيناه في الارض.وابتهج لانه نجا. وطوفت أمام عينيه صورة المقابر ، بقوالبها الحمراء الرطبة، ووحشة طرقاتها في النهار ، وظلامها الرهيب في الليل ، وارتجف. لكن ضوء النهار الباهر ، أنساه كل شيء فراح يحدق سعيدا ، في بقع الظلال والضوء ، التي تكونها اوراق الاشجار ، على جانبي الطريق. وتذكر على بعد ، ان كيلة الذرة بخمسة وعشرين قرشا ، وأن أجره اليوم لا يكفي ، فاغتم ، وراح يجر العربة بمشقة وقد أحس أنه يحملها على كتفيه .

كان علي يقترب من القرية ، ولم يعد بينه وبينها سوى أقل من ميل. وتدفقت في أذنيه أصوات رعب ، حملتها مياه القناة المتعرجة ، فانتصبت أذناه كجواد يشعر بقرب خطر . وأخذت جسده كله قشعريرة باردة ، وراحت عيناه تحدقان عبر المزارع والاشجار ، وهب عليه هواء ، شم فيه رائحة رماد . وفكر ان ثمة حريقا ، فجذب العربة بذراعيه ، وظل يعدو محموما . وكان يفكر : « هذا يحدث في قريتي » . ودار بخاطره أن اليوم يومه ، وأنه رجل القرية دائما في ساعتها العصيبة . وكان الطريق طويلا أمام عينيه ما يزال .

ـ ٨ ـ

لسبب ما تحققت أمنية علي غنيم للحاج عليوه . كان العرق يسيل على الوجوه ، عندما شبت النار في دكانة عليوه ، وارتفع الدخان من منور البيت وباب الدكان . واندلعت معه ألسنة النيران ، وراح شررها يتطاير الى البيوت المجاورة ، مداعبا ما عليها من أكوام الحطب والقش. وانتشر الفزع في القرية وهربت أسرة عليوه من البيت.

كانت زوجة عليوه قد ملأت موقد الجاز بالجاز ، وضغت في جوفه

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا — لمحيي الدين صبحي

قضايا جديدة في ادبنا الحديث — للدكتور محمد مندور

في ازمة الثقافة المصرية — لرجاء النقاش

هواء اكثر من طاقته ، وانتظمت نار الموقد ، وتحلقت حمراء صفـــراء زرقاء حول قلبه . وخرجت المرأة من الغرفة لتأتي بالمقلاة . وقبل ان تدخل الغرفة ، انفجر الموقد ، وتناثر جازه المشتعل في ارجاء الغرفة ، وامسك بالسقف والنافذة والباب . وصرخت المرأة ، وأسرع عليـــوه على صوت الانفجار والصراخ . كانت النيران شديدة ، وأخذ عليـــوه يزعق مستنجدا ، لكن أحدا لم يسمعه . فأسرع يجمع أبناءه وملابســه، وخرج بهم الى الشارع نادبا .

باب مؤكدا ان الحريق صار يهدد القرية كلها . وتنادى النـاس ليطفئوا النيران المتزايدة ، وتجمع الرجال امام بيت عليوه ودكانتـه مسلحين بالعصي والفؤوس . وطفت في رؤوسهم فكرة واحدة . لم يكن من عادة رجال القرية ان يتراجعوا امام حريق ما يشب في البلدة. لكن حريق عليوه ، جعلهم يرنون الى النار في وجل ، وينتظرون لحظة الخطر الرهيبة ، فدكانة عليوه ، كان نصفها الاعلى مرصوصا ببراميل الجـاز والزيت ، ولو طالتها النيران ـ وستطولها ذات دقيقة ـ فلن يكون ثمة طريق للنجاة ، لمن يحاول اطفاءها . ولم يكن مقدرا ان تنجو القرية مـن الحريق . فظل الرجال يهدرون فيما بينهم ، وقد اكل الخوف قلوبهم. واخذت النسوة يرمين جدران البيت من الخارج بالمياه ، وهن يصرخـن في فزع . وكان الاطفال مازالوا يصفرون مبهورين ويتنادون في نشوة . والنار لا تهدأ لحظة . بينما زعقت الحيوانات في مرابضهـا ، وراحت تحاول الفرار من حبالها . وعدت الفئران هاربة من مناطق الخطر الـى اطراف القرية . وكان ثمة كلب ينوح كالذئب ، منذرا بأن أحدا سيموت.

*

كان الحاج رجب يقف مبهوتا بين الرجال ، والزبد يملأ شدقيه مـن الهول ، وعيناه معلقتان بالنار . وزعق الحاج رجب :

ـ ولد يا منسى . اتقف هكذا والنار تأكل بيت أخيك ؟

فاجابه منسى بغيظ :

ـ النار تأكل بيت اخي ؟ يا ليت !.. انها تطهره يا عم الحاج.

واضاف متشفيا من أخيه :

ـ تطهره من الحرام الذي فيه .

كان منسى يقف مشبكا يديه وراء ظهره غير مكترث . وفترت همة الحاج رجب . وعاد ينظر الى الحريق ، ثم عاد يصرخ :

ـ والبلدة يا منسى ؟ ستحترق البلدة كلها يا منسى.

واضاف بثقة :

ـ براميل الجاز ستنفجر.

وتلفت الحاج رجب حوله في يأس كحيوان مفزوع هرم . وفكـر منسى ان الحريق سيطهر البلدة ايضا . كانت الحياة قاسية معه، وكان قلبه ما يزال محزونا من أجل صديقه علي. وصرخ الحاج رجب مستنجدا بصوته الطفولي :

ـ يا علي يا غنيم .. يا علي يا غنيم ..

واضاف وهو يبكي :

ـ يا خال علي .. يا خال علي

ولم يعد صوته يطاوعه . كان منسى خائفا في قلبـه مـن النار، وبراميل الجاز ، لكنه اذ سمع الحاج رجب يستنجد بصديقه كما يفعل الشيخ بهلول ، زادت نبضات قلبه وعلت ، وراح يتطلع حوله باحثا عـن علي غنيم . ثم راح يصرخ وهو يشق الزحام مناديا علي غنيم. وتذكـره الناس فراحوا ينادونه : اطفالا ، ونساء ، ورجالا ، دون أن يبارحـــوا الحارة ، أو ترتفع أعينهم عن السنة النيران.

ـ ٩ ـ

كان علي غنيم يجر عربته عاديا نحو القنطرة . بدا الصراخ الان اكثر وضوحا في اذنيه. وكان الدخان الملتهب يتموج أمام عينيه ، ويتصاعد من قلب القرية عاليا . وشعر بضجة القرية تنفجر في اذنيه موجيـــة باستفاثة مبهمة . وأحس بجسده يقشعر ، وشعر رأسه ينزرع كالشوك. واندفع علي بعربته عابرا القنطرة . وانفرجت الضجة في أذنيه ، وسمعهم ينادون عليه . فكر ان بيته يحترق ، ودار بخاطره ان اولاده محاصرون في النار ، فانطلق يعدو ويعدو .. في طريق بيته .

كان الجو يزداد سخونة حوله ، كلما اقترب . واذ انعطف في حارة، ارتطمت عيناه بزحام الناس وكانت ألسنة النار العالية قد قسمت الناس نصفين ، على جانبي دكانة عليوه . وصرخ علي غنيم مجيبا الناس :

ـ جاي يا ولد .. جاي .

ـ ١٠ ـ

أخذ علي غنيم يشق طريقه وسط الناس في حماس ، وأدرك أن براميل الجاز سوف تنفجر ، وتحرق القرية كلها . وتحت ألسنة النار، امام باب الدكانة تماما . في رقعة خالية من أي أحد سواه ، وقف علي غنيم ، وخلع ثوبه . وخيم الهدوء على الناس وهم يشهدونه . ونـــادى علي غنيم صديقه :

ـ منسى . تعال يا منسى.

ومرق منسى في صمت ، ووقف بجواره ، ونزع ثوبه : وشمر فانلة عن ذراعيه . وبدوا معا كجذعين لسنديانتين قديمتين . وقال علي :

ـ يا اهل البلد . يا أهل البلد .

سكتت همهمة الناس تماما . ولم يعد أحد يسمع سوى أزيـــز النار . وأضاف علي :

ـ يا أهل البلد . احملوا ما تخافون عليه الى المزارع . أغرقـــوا سطوح بيوتكم بالمياه . لا يأت معنا أحد . الرجال يحرسون بيوتهم مـن شرر النار .

*

جذب علي يد صديقه ، واندفع معه . قفزا من فـــوق المنضدة . استدارا وراحا يضربان المنضدة بأقدامهما ، ويدفعانها بأذرعهما . ثـم قذفا بها في عرض الحارة . وقال علي غنيم آمرا :

ـ منسى .. الى السندرة . ناولني براميل الجاز. احذر ان تقلبها فوقي.

.. كانت السندرة سقفا مستعرضا بين ثلاثة جدران . كانـــت بارتفاع قامة رجل . وصعد منسى أربع درجات خشبية . كان الدخـان كثيفا ، امتلأ به صدر منسى . وكانت السنة النار تداعب البـــراميل، عابرة ردهة البيت ، وجدار الدكان الخلفي القصير ، وتلقى وهجا متقطعا في فراغ السندرة . وادار منسى برميلا على قاعدته ، حتى بلغ حافـة السندرة . كان حديد البراميل يكوي الاصابع . دمه على كفه ، وتلقـى قاعدة البرميل ، وأسند حافته بكفه الاخرى ، وانطلق يعدو به في الحارة، حتى بلغ القناة ، وقذف به في الماء ، وعاد يعدو لاهثا.

عاد علي الى الدكانة ، والناس يرقبون في دهشة . وسمع عـلي امرأته تصرخ منادية عليه ، لكنه لم يلتفت نحوها . كان العرق يسيـــل على عينيه وعنقه ، مختلطا بأتربة قديمة . وود لو حك جلده ، كـــان البرميل الثاني على حافة السندرة . وسعل علي برغمه طويلا . ومـــد يديه ، وتلقى قاعدة البرميل بكف ، وأسند حافته العليا بالاخرى . وعدا ثانية الى القناة . كان العالم صامتا في أذنيه . لم يعد يشعر سوى بنفسه والنار . وكان الناس على جانبي الحارة يتحدثون :

ـ احمه يا ربنا من الجحيم .

وصاح اخر ، وهو يمس جانب البرميل الذي يحمله علي :

ـ آه .. انه قطعة من نار .. كيف يطيقه ؟

وكان علي يفكر ان البلدة ستحترق ، وان حياته في يده اليـوم، وان سنوات طويلة من الشقاء قد مضت ، حتى صارت على ما هي عليه، امتلأت بالناس والبيوت والعواطف . وقذف علي بالبرميل في القنـاة. وتهدجت انفاسه ، وسمعت أذناه طشيش حديد في الماء ، ولمحت عينـاه بركة جاز تطفو في غير نظام . وكر عائدا يعدو الى السندرة ...

ـ التتمة على الصفحة ٥٨ ـ

... وبعدنا الطوفان

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٢ ـ

ـ ١١ ـ

كانت السنة النار تمد اصابعها في فراغ السندرة ، وكان الدخان والحر قاتلين . واخذ منسي يناضل وهو يدير البرميل الاخير على قاعدته الي الحافة . كان البرميل الاخير . وكان يفح حرارة . وطالت حافة السنة النار . وراح منسي يزفر ، متلفتا حوله ، ذابا الدخان بكفيه، علّه يرى « علي » عائدا اليه . ولفحته السنة النيران من بعد ، فصرخ مستنجدا :

ـ يا علي يا غنيم .. يا خال علي ..

كان بمقدوره ان يقفز وينجو بجلده ، لكنه ظل منتظرا ، واخذ يبحث لنفسه عن ماوى لا تطوله النار . وجاء علي غنيم صائحا :

ـ ماذا بك ؟

دبت الفرحة في قلب منسى ، وصاح :

ـ لا شيء . البرميل الاخير .

فزعق علي غنيم :

ـ الحمد لله .. ادفعه نحوي قليلا ..

مد منسى يديه ، وأخذ يزيح البرميل امامه . كانت النار تطوف داخل فوهته في دوامة . وكوى الحديد يديه، فصرخ دون أن يرفع يديه. وهتف علي مناديا :

ـ ماذا حدث ؟ منسى . ماذا حدث ؟

فجاوبه منسى صائحا ، وهو يرطب يديه تحت ابطيه :

ـ لا شيء . أسرع يا علي . اسرع.

مد علي كفا ، وتلقى بها قاعدة البرميل . سرت حرارتها في يده كلها ، ورأسه . وتجلد . بينما قفز منسى هابطا الدرجات الاربع ، وعدا مارقا من باب الدكان . وفي ذات اللحظة ، رفع علي البرميل بيده الى اعلى قليلا ، وعاد يهبط بها ، ليسند حافة البرميل بكفه الاخرى، ولسعته النار . وارتعدت يده الاخرى وخانته ، ومال البرميل بجازه ونازه فوقه . أحس ان ثقل العالم وظلامه يهبطان فوقه ، فاغمض عينيه في يأس . وتدفقت دفعات الجاز والنار ، وغمرت رأسه وصدره وبطنه، فزعق من أعماقه :

ـ آ.....ه

ـ ١٢ ـ

استدار منسى على صوت الاهة . وبهت ، وحدق . شاهد علي غنيم يخرج من باب الدكان في بطء . كان يتلوى يمنة ويسرة ، ويتقدم، في بطء ، وذراعاه ممدودتان على جانبيه في عجز تام . لم يكن يزعق. كان فقط يزفر من نار في جوفه . افاق منسى لما يحدث، فاندفع نحو علي صارخا . وضج الناس في فزع، وابتعد اكثرهم الى اطراف الحارة مرتعبا . وشق صراخ سميحة فضاء الحارة ، مخترقا سحب الدخان والسنة النيران ، وقذفت بنفسها نحو علي. وتعالت ولولة أولادهما. لكن الناس احتجزوهم بين أيديهم . أحس علي بيدين تحتضانه. وسمع بكاء لا يعرف صاحبه . وجاهد حتى فتح عينيه. فابصر منسى . وفكر علي ان صديقه سيحترق معه ، وان اولاده سيظلون بدونه وبدون منسى. جمع علي قوته الباقية ودفع منسى بيديه بعيدا . وراه يقترب ثانية فركله ، وصرخ :

ـ لا تقترب .. الاولاد .. النار .. أطفىء النار .

تطلع منسى نحوه في رعب وهو يتراجع . وامدت « علي » حركة يديه وصراخه بقوة جديدة ، فاندفع يعدو ، وفي خاطره انبوبة مياه في حارة مجاورة . وبدا وهو يعدو ، لمنسى ، كتلة تتفحم ، وتتفصد زيتا ودهنا . وصاح منسى بالرجال :

ـ لم يعد في الدكانة جاز. هاتوا العصي ، وأوعية الماء .

واندفع الرجال خلف منسى حاملين العصى وأوعية من احجام مختلفة ليطفئوا النار . وبقي بعضهم ممسكا بزوجة علي واولادها . وانصرف ذوو القلوب الهشة ، ليروا ماذا يمكن ان يفعله علي غنيم ، وهو يعدو مبتعدا . وتذكر الحاج رجب ان علي غنيم يمكن ان يعيش وينجو اذا لفه بلحاف فراح يتلفت حوله متنمرا ، جاهدا ان يتذكر : اين يجد اللحاف لعلي غنيم ؟

ـ ١٣ ـ

كان علي يعدو في الحارة ، والناس يبتعدون عنه في ذعر . كان لحمه يتهدل على عظامه . وكان كل جسده يتفصد ألما ، مع قطرات دهنه الذائبة . لم يعد يستطيع ان يبقي عينيه مفتوحتين . اغمضهما له لحمه السائح. لكن حواسه كلها كانت صاحية . وبعين غير منظورة، كان ما يزال يبصر طريقه وهو يعدو ، دون ان يصطدم بحائط ، او يتعثر في حفرة ، او يحتضن احدا من المفزوعين حوله . وبين عويل النسوة كان ما يزال يسمع صراخ سميحة ، وبكاء اولاده . كان بوده ان يحتضنهم جميعا ، وينظر في وجوههم مرة . كان يدرك ان جسدا يحترق مثله، يحترق وحده ، وليس في وسع احد ان ينفعه اللحظة . انعطف علي عند نهاية الحارة . وكان ما يزال يفكر ان ماسورة المياه هي فرصته الوحيدة ، ليظل حيا .

خوضت قدماه في البركة الصغيرة امام ماسورة المياه المرتفعة. اصطدم بالماسورة ، فاحتضنها بصدره وساعديه ، وراح كفاه يبحثان بلهفة عن مفتاح الماء . وزعق علي غنيم فزعا ، حين لم تجد يداه المفتاح. كانت صامولة الماسورة عارية تحت يديه ، مضلعة الدائرة ، وكان حديدها باردا . لهث مرتعبا . تشبثت يداه بقمة الماسورة . شب على قدميه، حتى طالت اسنانه الصامولة . راح يعضها محاولا ان يديرها لتتدفق المياه فوقه ، وتطفىء النار فيجسده . تهشمت اسنانه الامامية ، وسالت من فمه خيوط من دماء ، امتزجت بشحم وجهه وعنقه . وأحس ببطنه تتمزق قطعا ، فاخذ يعوي عواء حيوانيا رهيبا . كان الدهن الذائب يتجمع ويتساقط على بطنه ، ويغلي فوقها مختلطا بدوامة من نار رقيقة. وخذلته قواه ، فتهاوى على ركبتيه راكعا ، وانطرح في بركة المياه الصغيرة العطنة . وسمعت اذناه طشيش جسده في الماء ، وأحس ببرودته الحلوة، فراح يتقلب يائسا في مياه البركة.

ثم .. اخذ جسده يختلج كدجاجة مذبوحة . وخبط ذراعاه الماء عدة مرات . وكانت ساقه اليسرى تنثني منتفضة . وراح يفهق. وانطبعت في قلبه لحظة رعب ، تذكر مشهدا رآه ذات يوم ، في مقبرة جديدة ، فتحها ذئب عابر ، وتركها ، كانت في المقبرة جمجمة ، تجاه القبلة ، وقبضتان من دود ابيض ، ملتفتان ، داخل العينين ، تدوران ، في حركة دائبة .

ـ ١٤ ـ

جاء الحاج رجب مسرعا ، يحمل بين ذراعيه عدة بطاطين ، طرحها ارضا . وامتدت أيدي رجال وفرشت البطاطين . وخوض الرجال مع الحاج رجب في ماءالبركة . وقال الحاج رجب :

ـ احملوه من هنا ـ الماء خطر عليه .

وأجابه أحدهم :

ـ لا فائدة . لقد مات .

واضاف :

ـ لم تبق منه سوى العظام .

صرخ الحاج رجب :

ـ ماذا ؟ مات .. احملوه من هنا . لا تتركوه في هذا الماء القذر.

وكان صوته يتهدج .

*

اقبلت سميحة واولادها ، وهي تصرخ نادبة . وكان الرجال لحظتها يوسدون الجثة على البطاطين . ارتمت سميحة على زوجها ، واحتضنت رأسه . وزعقت من قلبها :

ـ يا جملي .. يا جملي .. من لنا بعدك يا جملي .

ورفعت رأسها ، وحدقت في الفراغ بيأس . وزعقت :

ـ يا خال علي ..

جذبها الرجال بعيدا . وكان الاولاد قد انفطروا بكاء . فصحبوهم معها الى البيت . وقال احدهم :

ـ من حسن حظه ان الماسورة لم يكن بها مفتاح.

لكن صاحب الصوت عاد يبتسم بمرارة ، اذ وعى ان علي قد مات فعلا ، دون ان يكون المفتاح في ماسورة المياه.

*

اقبل منسى عاريا ، وقد تمزقت ملابسه الداخية . كان جسده مكسوا بالماء والرماد.وزعق اذ راى الرجال يحملونه في لفافة من بطاطين:

ـ مات ؟

وقف مبهوتا لحظة ، ثم هجم على الرجال ، واخذ يضربهم بقدميه ويديه ، دار بخاطره أنهم قتلوه وهو غالب . وامسكت به الايدي ، فلم يعد يستطيع حراكا . وأخذ فكاه يتقلصان ، وعيناه تحدقان في الجثة المحمولة . وصرخ منسى :

ـ دعوني . دعوني احمله .

وزعق ثانية ، اذ راى الرجال يبتعدون بصديقة بعيدا :

ـ لا . لا . انه لم يمت . خذوه الى المستشفى . اسرعوا.

كان الرجال ينعطفون بالجثة بعيدا . وفكر منسى انه لن يرى صديقه ثانية . فناداه بكل طبقات صوته :

ـ لا تخف يا علي . لا تخف . أولادك في عيني يا علي . اولادك في عيني .

كانت الجثة قد غابت بعيدا . فران عليه سهوم مفاجىء . وسكنت كل عضلاته في أيدي الرجال . وأخذ يحدق في لا شيء . كان الفراغ كله أصفر في عينيه . حتى الوجوه . وسمع صوتا يقول له :

ـ لا تحزن. لا تحزن يا منسى . لقد فدى البلدة بنفسه. لا تحزن. مات شهيدا على أي حال . ثوابه كبير عند الله .

وقال الحاج رجب :

ـ منسى . منسى . افق لنفسك . انت عريس جديد . لم يمض على زواجك سوى شهرين . منسى .

وراح الحاج رجب يهزه ليعي. ولم يكن منسى قد وعى ما قالوه. فقط ، أخذ يبتسم ، وشفتاه مزمومتان ، وأخاديد هرمة تحفرها ابتسامته على وجهه . وراح الرجال ينظرون الى بعضهم ، حين رأوا ابتسامةغريبة على شفتيه .

ـ ١٥ ـ

وقف منسى قبالة القبر . وأطرق . أجهد نفسه ليتصور حالة علي وشكله بين هذه الاحجار . لكن خياله كان مائعا . تذكر انه لم يحضر جنازته . تذكر انه ظل يومها مبهوتا . جهد خياله ليرى جنازته. تراقصت صورة مضببة في مكان ما من رأسه : همهمة عميقة واسعة تعزف في الصورة . يد عجفاء تسوي الطين على حافة القبر . صوت ميت يرن مرددا : « يا عبد الله اذا جاءك الملكان وسالاك ما اسمك ؟ وما دينك؟ فقل لهما : .. » . وارتعد منسى .

رفع منسى رأسه ، ودار بعينيه في مقبرته . لاحظ ان لبنات رطبة ، وان الارض تحته سبخة ، تنضح ملحا . وفكر انه جثة . وحدق في شاهد القبر . كان عاريا .

مال منسى الى مقبرة ميت اخر . كان قبره مطليا بجير أبيض. انتزع منسى من شاهد القبر العاري قطعة جير . وعاد اليه . وحكها باصابعه . وكتب بها على شاهد مقبرة صديقه : « هنا ينام صديقي علي غنيم الذي مات بدلا من قريته » . ولم يعد في شاهد القبر متسع. فترك قطعة الجير على حافة المقبرة . وفكر أن شاهد القبر لم يعد عاريا . وفكر أن قطعة الجير ثقيلة عليه ، فحملها برفق ، وطوح بها بعيدا .

واذ كان ينصرف بعيدا . شاهد فئرانا تعدو بين المقابر . وفكر، وعيناه الى الارض ، ان ذلك هو عالم الموتى.

ـ ١٦ ـ

نادى منسى في عرض الحارة :

ـ يا عم الحاج . يا عم الحاج

توقف الحاج رجب . وانتظر في الظلام . ولحقه منسي ، وقال :

ـ اولاد علي يا عم الحاج. ليست لديهم ذرة .

تألقت عينا الحاج في الظلمة . وقال بنبرات عطف :

ـ تعال معي . خذ لهم ما تشاء . لكن .

وهز الحاج رأسه في أسى ، وقال :

ـ لكن ذلك لا يدوم . لهم الله . لهم الله.

وسارا جنبا لجنب وقال منسى :

ـ عمي الحاج . دلني على نفس مثلك في البلدة ، اذهب اليهم و..

فقال الحاج رجب :

ـ في ظروف كهذه . سيعطونك . سيعطونك حتما . لكن ذلك لا يدوم . الايام تأتي دائما . يوما ، وشهرا ، وسنة . وحاجتهم لا تنتهي، حتى يكبر الاولاد . لكن الظروف تتغير . ومن يعطي اليوم لن يعطي غدا.

وتنهد الحاج رجب ، واضاف :

ـ ذلك فظيع . بيت بلا رب . هيه . لهم الله لهم الله.

فهم منسى ما يقصده الحاج رجب . (وراحت الفكرة تختمر في رأسه) . واستمرا يسيران .

ـ ١٧ ـ

دخل منسى بيت أخيه الحاج عليوه . وجده جالسا ، ووجهم بين كفيه . بدا عليوه مثقلا بالحزن . وتلفت منسى حوله . كانت اثار الحريق ما تزال في كل مكان ، كيوم اخمد ناره . وقال عليوه بنفور :

ـ ماذا تريد ؟.. ما الذي جاء بك اليوم ؟

انقبض قلب منسى . ظن لحظة رآه حزينا ، أن قلبه قد طهره الحريق . وود لو يصرخ في وجهه، لكنه لمح زوجة أخيهواولادها جالسين في غرفة بلا باب . فقال :

ـ جئت من أجل أولاد علي . علي مات من اجلك . مات ليبقى لك شيء من الدكان والبيت . أولاده في حاجة اليك الان .

ارتج جسد عليوه سخرية . وقال بقرف :

ـ علي لم يمت من أجلي . علي مات لينقذ القرية . صباح الحريق تمناه لي. فاحترق بيتي ودكاني. وابتسم عليوه بسخرية ، واضاف :

ـ واحترق هو أيضا ، معهما .

فقال منسى ، وقد ضايقته ابتسامته الصفراء :

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب

ـ أنت تعلم أنه لولاه ، لما بقي لك شيء . لقد ناولك المال بيده من أدراج الدكان . ولو لم يفعل لاحترق مالك مع الاشياء الاخرى .

فقال عليوه ، وهو ينظر الى الغرفة التي بلا باب :

ـ وهؤلاء ؟.. أنا بحاجة لما بقي معي من مال، لاعمر ما دمره الحريق، وأجدد الدكان ، و .. قاطعه منسى قائلا :

ـ حريقك دمر علي أيضا ، ودمر بيته . لم تنس ذلك ؟

فقال عليوه ، ضاغطا على الحروف :

ـ نفسي نفسي . كل الناس منذ بدء الخليقة يقولون ذلك.

قالها بغضب ، واضاف :

ـ والان .. لماذا تسكت هكذا ؟.. لا تنظر الي هذه النظرة. اذهب.

فقال منسى كأنه يحدث نفسه :

ـ نفسك ؟.. وعلي مات لينقذ ما بقي لك من مال وجدران ؟ لم يقل نفسي ساعتها . لم يقلها أبدا .

فقال عليوه محتدا :

ـ قلت لك : علي مات لينقذ القرية . مات من أجلهم ، وليس من اجلي . اذهب اليهم . لماذا تلومني وحدي . جرب معهم . ستجدهم كلهم مثلي.

فردد منسى ، ونظراته مليئة احتقارا :

ـ ومع ذلك ، مات من أجل رجل مثلك ؟

امتلأ عليوه احساسا بالخزي . فقال :

ـ على أي حال . ربما لا تعلم . لكن اسأله . اسأل الحاج رجب. من اشترى له قبره بأرضه وطوبه . أنا الذي دفعت ثمنه . لقد منحته قبرا لم يكن ليجده . اسأله لماذا فعلت ذلك ؟ لان أحدا اخر ، لم يهبه قبرا واحدا من مقابر أسرته .

فقال منسى ،وقد فوجيء لحظة ، قال بدهشة :

ـ قبرا فقط ؟ منحك حياته . انقذ مالك . وتمنحه قبرا ؟ ولولاه لكان مصيرك كالشيخ بهلول . لكنت تعيش مثله ، مع كل عائلتك ، في مقبرة مهجورة .

لم يجب عليوه . وصمت منسى . وفكر في أهل القرية . وفكر انه لو ذهب اليهم ، فستكون الامور معهم صعبة للغاية . وحتى لو مدوا أيديهم ، فان ذلك لن يدوم لاولاد علي . قد يتكرر . لكنه لن يدوم. لن يدوم أبدا . قال له ذلك ، قبلا، الحاج رجب . (وازدادت الفكرةاختمارا في رأسه) . وقال عليوه مؤكدا :

ـ على أي حال . لم يكن علي غنيم قادرا وهو حي على قوت أولاده.

فقال منسى ساخرا :

ـ أتعزي نفسك ؟

فقال عليوه ، برقة :

ـ يا منسى . يا أخي . لا تحزن . هذا مصيرنا جميعا . تلك مشيئته .

ونبتت في رأسه فكرة عابرة . فامسك بها . وقال بدهشة :

ـ لكن ما يحيرني هو : ما سبب كل هذا الاهتمام منك .. بهم.

كان منسى مقعيا بجواره ، مسندا ظهره الى الحائط ، ويداه بين صدره وفخذيه . وبسط منسى كفيه . وشب واقفا ، ومد كفيه المبسوطتين ، وقال بعجز :

ـ لا شيء . لا شيء . فقط . أنه كان صديقي.

تجمدت ملامح عليوه . واستدار منسى وخرج . وأخذ عليوه يحدق غير مصدق ، في منسى ، الذي يبتعد .

ـ ١٨ ـ

اقترب منسى من بيت صديقه الراحل ، فوجد ابنه الاكبر مقعيا أمام الباب . فناداه :

ـ ولد يا أحمد . اين أمك ؟

هب احمد واقفا . وقال :

ـ امي . عم منسي . أمي قالت لنا ان نبقى امام البيت . وذهبت.

وقدم حسن من غبش الظلام ، وقال :

ـ عم منسى . أمي ذهبت ناحية المصرف . تبعتها من بعد. شاهدتها تدخل الغاب . لكنني خفت منها فعدت .

قال منسى :

ـ تدخل الغاب ؟ لماذا ؟

وهز رأسه كمن فهم شيئا . وتذكر ما قيل له يوما ، ورفض يومها ان يصدقه . وقال بعجلة :

ـ هوم . أبق مع اخوتك هنا يا احمد حتى تأتي .

وكر منسى عائدا . متجها نحو المصرف . وفكر أثناء سيره ، ان الاولاد سرعان ما ينسون ، لكنهم ما زالوا حزانى

*

قابلها منسى قادمة على الطريق المترب . عن بعد لمح ابن أخيه يتهادى قادما على مهل . لكنه ، اذ أبصره ، عاد اختفى ، في قلب الغاب، وترددت سميحة في سيرها ، ثم عادت تتقدم . قال لها منسى :

ـ لم يمض على وفاته أسبوع يا سميحة .

توقفت . وقالت :

ـ لم يعد لدينا خبز .. منذ يوم .

فقال منسى ناقما :

ـ وتخونين ذكراه .

لم تجب سميحة . واستأنفت سيرها . وسار منسى الى جوارها مضطربا ، صامتا . وفكر انه لم تخطىء . وسأل :

ـ منذ متى تقابلينه .. في الغاب ؟

أجابت قائلة :

ـ المرة الالى ، كانت ، وهو حي . كنا جياعا . أنت تعرف !!

هز منسى رأسه ، وقال :

ـ وهذه هي المرة الثانية

أومأت سميحة برأسها وهي تنهد . كانت تفهم عواطفه نحو الراحل . وكانت غارقة في الخجل . لكنها قدرت أنه يدرك موقفها. فقالت :

ـ لا بد أن افعل اليوم ، ما لم افعله قط.

قال منسى ، وقد خمن انها ستسير في طريق قذر :

ـ وماذا ستفعلين ؟

قالت :

ـ ساطرق ابوابهم ، لاخبز ، واغسل ، و .. اخدم . كان ينبغي ان افعل ذلك منذ زمن ، حتى وهو حي. لكنني لم افكر في ذلك . لا .. ربما فكرت . لكن ذلك ، لا تفعله امرأة الا عندما تصبح مكسورة الجناح. بلا زوج . لذلك لم افعله قبلا .

ارتاح منسى . لكنه اضطرب . وشعر ان الفكرة وجيهة تماما، وانها اختمرت في رأسه جيدا . فقال لها :

ـ سميحه ؟.. ماذا لو تزوجتني ؟

واضاف مؤكدا :

ـ سأرعاك بعده .

ابتسمت سميحة بمرارة . وتنهدت . وقالت :

ـ وزوجتك ؟.. تأتيها بضرة ؟

فقال منسى بيقين :

ـ أنا واثق انها ستحبك . وانك ستحبينها .

ولم تجبه ، فصمت . وفكر انه لا يشعر باطمئنان لعرضه عليها . وعاد يقول ، كما لو كان يحدث نفسه :

ـ لم يطهر الحريق قلوب الناس . ولا قلب عليوه .

واضاف حزينا :

ـ ليته ترك الحريق يأكل القرية ـ ليت الحريق يشب مرة أخرى.

ودت سميحة ان تقترب منه ، وتلوذ بذراعه . وشرعت في ذلك.

لكنها شعرت ان زوجها يقف بينهما ، وانه ما يزال رجلها ، فابتعدت مرتبكة ، وقالت :

ـ لا تقل هذا . لا تقله أبدا . ما كان يمكن ان يقف متفرجا . لم يكن زوجي من هذا النوع من الناس. كان دائما خالا للجميع . الشيخ بهلول نفسه يعرف ذلك .

اهتز قلب منسى تأثرا ، واعجابا بها . وقال بيقين :

ـ سأتزوجك

فقالت . كمن فكرت قبلا :

ـ لا . لن اتزوج بعده

وأحس منسى براحة غامضة.

.. كانا يقتربان من القرية ، واذ دخلا أول حارة . قال لها :

ـ اذا احتجت الي ، فبابي مفتوح لك . وعلى اي حال، سأمر عليك غدا .

فقالت ، دون ان تشكره :

ـ اود ان اقول لك ، قبل ان تذهب ، ان ابن اخيك ، اعطاني ربع جنيه ، في الغاب . ولم يأخذ شيئا مقابله . هزته الطريقة التي مات بها زوجي.

وسارت سميحة . بعيدا . وكان منسى يقف فاغرا فاه . وتساءل بغرابة :

ـ من .. ابن عليوه ؟!!

ـ ١٩ ـ

كان منسى جالسا تحت شجرة الكازورين . عن يمينه المقهى . وعن يساره كان ثمة حمار ينتظر صاحبه ، مطاطىء الرأس منصتا لحديث لا يسمعه أحد . كان راديو المقهى أخرس ، والناس جلسون في شبه صمت، يتحدثون بصوت خفيض . وفكر منسى ، وهو يحتضن ركبته بكفيه ـ كما كان يفعل علي ـ أن صديقه لم يخسر كل شيء . ها هم الناس يحسون بفقده . كما لم يحسوا بفقد احد . وتذكر منسى ، حالما ، يوم ان ذهب معه الى سينما المدينة . كان معهما يومها أربعون شابا من القرية . وكان الزحام شديدا . ومع ذلك . اخترق علي الزحام . وعاد معه باثنتين واربعين تذكرة ، وهو يضحك . وحين فتحت السينما باب الدخول الاخضر ، تحرك علي ، وشق الزحام ، وادار ظهره لصالة السينما ، ومد ذراعيه على الجانبين ، وفرج ساقيه على اتساعهما ، في فتحة الباب.ولم يستطع زحام الجمهور ان يزيحه من مكانه . كان يقسم لهم ان احدا لن يدخل ، قبل ان يدخل ابناء قريته جميعا. صمد يومها لمرافقهم ولكماتهم، وكان يبتسم ، ويسب ، ويلعن ، دون ان يجتازه احد.

ابتسم منسى للذكرى . وأحس بعاطفة طريفة رقيقة ، تعزف في داخله أنغاما وادعة ، وشعر بطمأنينة بالغة ، فراح يدندن من أنفه نغمة رتيبة ، هامسة .

*

جاء الحاج رجب حاملا كرسيا بيديه . وجلس بجوار منسى ، وانحنى متكئا بمرفقيه على ركبتيه ، وشبك كفيه . وقال الحاج رجب، وقد صمت طويلا :

ـ كيف حال اولاده ؟

فقال منسى :

ـ بخير .

قال الحاج :

ـ فيك البركة . كنتما صديقين.

ولم يجبه منسى . فقط ، فكر ، ان سميحة لن تكون ذكراه بعد ، وانها ستنهض وحدها . وانها ستشقى كما شقي هو ، ربما دون ان تنال شيئا ، غالبا لنفسها . وقال الحاج رجب :

ـ الناس كلهم حزانى لاجله .

فقال منسى بمرارة :

ـ ومن الحزن ، تعيش زوجته واولاده .

وتنهد ، وشعر بالكآبة تغمر نفسه . وقال الحاج رجب :

ـ كلنا موتى .. لكننا نعيش . ونولد .

فقال منسى :

ـ ليته لم يأت . ليته ترك الحريق .

فقال رجب بفزع :

ـ ترك الحريق ؟ ماذا تقول ؟

وبصق الحاج رجب . ودأس بصقته بقدمه كأنها حشرة . وزم فكيه الاهشمين . وفكر منسى أنه هو الاخر يفكر في بيته ومله ، مثل عليوه. قال له عليوه . : « كلهم مثلي . لماذا تلومني وحدي ؟ » ود لو يتحدث في ذلك ، لكنه تأكد انه سيخسر بقوله ولن يكسب . سيخسر الحاج رجب أيضا . وهو يعيش بين الناس . ولا يعيش وحيدا . وأدار منسى الكلمات في رأسه جيدا ، وقال :

ـ ليته فعل . كانت القرية ستتطهر .. حتى من الحزن .. خبزنا معجون بالدموع.

وفكر الحاج رجب ، أنه حزين من أجل صديقه ، وانه لا ينبغي ان يؤاخذه على كلام صنعه الحزن . وارتاح الحاج رجب لهذه الفكرة. وانبسطت اساريره ، كطفل . وقال بصوته الرفيع الحاد ، على غير موعد:

ـ أنا لا انسى يوم سطا لصوص المواشي على البلدة ، والناس نيام ، خائفون من البنادق واللصوص ، الذين سافوا المواشي من الحظائر.

وهز الحاج رأسه باعجاب ، وقال :

ـ لولاك أنت وعلي ، لما رجعت لنا مواشينا .

*

جاء اكثر الجالسين في المقهى بكراسيهم . جذبهم صوت الحاج رجب الحاد . وتحلقوا بجوارهما . وقال أحدهم :

ـ والله . سنفتقده . سنفتقده على الدوام.

وقال الحاج رجب :

ـ ولد يا منسى . ارو لنا ما حدث يومها .

تنهد منسى . وقال وهو يزفر :

ـ يعني .. ما حدث حدث

صفق الحاج رجب ، مناديا الجرسون . وقال :

ـ ولد يا عبده . هلت شايا لمنسى .. ولكل من هنا .

طرأت فكرة في رأس منسى ، فقال :

ـ لا .. كم نحن .. أكثر من عشرة !!

قال الحاج رجب مستغربا :

ـ نعم .

فقال منسى بحزم :

ـ هات ثمن الشاي لاولاده

خجل الحاج رجب ، وقال كأنه ادرك شيئا فاته :

ـ وهو كذلك

وفكر ، ثم قال :

ـ بشرط !

ـ ما الشرط ؟

ـ أن تروي لنا ما حدث ، يوم ان طاردتما اللصوص .

شعر منسى بالضيق ، لان شيئا ما لا يبذل دون ثمن ما . لكنه آثر أن يكون عاقلا ، فمال بظهر كرسيه الى الوراء ، مستندا الى ساق شجرة الكازورين ، وقال كأنه يتذكر ، وصوته يرتفع تدريجيا :

ـ علي هو الذي عاد بها يا عم الحاج . قلت لكم ذلك من قبل، وهو حي. لم يعرفه أحد كما عرفته . لم يكن في جسمه قدر اصبع، لم تصبه ضربة سكين ، أو حد زجاجة مكسورة .

وتوقف منسي فجاة ، اذ تذكر . ثم قال بحزن :

ـ وبعد ذلك ، لم ينج جسده كله من النار .

طاطا الناس رؤوسهم حزنا . لكن منسي عاد يقول بحماس :

ـ علي حمل البندقية ، لم يطلق منها رصاصة واحدة . حميت أنا ظهره بطلقات الرصاص في الهواء . كنت اقفز وسط المزارع ، حول اللصوص ، من كل ناحية . علي قال لي ان افعل ذلك . وانقض هو في ظلمة الليل . انقض عليهم بكعب البندقية . كانت البندقية في يده كالعصا . حسبونا جيشا ، فهربوا جميعا في المزارع ، بجراحهم ، وكسورهم . كانوا أكثر منا عددا . لكن أحدا منهم لم يقف في وجهه. وعدنا يومها بالماشية ، ونحن نغني ، ونطلق الرصاص في الهواء .

قال احد السامعين :

ـ وبعد ذلك . ماذا حدث ؟

فقال منسي :

ـ لا شيء . أعدنا البندقيتين الى صاحبيهما .

وصمت منسي . وفكر ، أنهم الان فخورون بأن « علي » واحد منهم . وقال لنفسه : « وماذا جنى هو ؟ » . وقال الحاج رجب :

ـ اذكر الان ، انني كنت جالسا عند حلاق . كان علي صغيرا في العاشرة .. و ..

.. وبزغ القمر ، مبددا ظلمة الجو . وكان الحاج رجب ما زال يتحدث في اعجاب ، بصوته الرفيع الحاد.

ـ ٢٠ ـ

قضى الناس سهرة ممتعة ، في ذكراه . وراحوا يمسحون دموعهم بمناديلهم وظهور أيديهم ، وقلوبهم ممتلئة نشوة من حكايات علي غنيم.

وأقبل من الضوء الاصفر الشيخ بهلول . لم يروه في موجة الاسى والسرور . سمعوا فقط صوته ، دون ان يحيي أحدا :

ـ عمي . أعطني مليما

نظروا اليه . كانت يده ممدودة الى الحاج رجب . مد الحاج رجب يده في جيب ثوبه . وأخرج قرشا ، وناوله اياه في كفه . وتحسس الشيخ بهلول ما أعطاه ، فوجده مثقوبا . فقال محتجا ، وهو يمد يده:

ـ لا . ليس هذا مليما . أعطني مليما .

فقال منسي ، وقد سرت في رأسه روح فطنة :

ـ يا شيخ بهلول . القرش أكبر من المليم . اذهب

فقال الشيخ بهلول محتجا :

ـ لا . ليس هذا مليما . المليم يكفي .

واضاف قائلا لمنسي :

ـ خذه أنت . وهات مليما .

ناوله منسي مليما كان في جيبه . وأخذ القرش ، وضمه الى القروش التي سيعطيها الليلة لسميحة ، وقال :

ـ اسمع يا شيخ بهلول . لماذا تسكن في مقبرة ، وأنت ما تزال حيا.

فقال الشيخ بهلول ، وهو يحك قفاه :

ـ اه . المقبرة . كلنا سنسكن فيها . سيحدث ذلك يوما . سيحدث لنا ، واحدا بعد واحد .

وعاد الشيخ بهلول يواصل سيره . كان الاولاد ما يزالون يلعبون فوق القنطرة . وحين رأوه ، علا صياحهم ، وانهالوا ضربا على قفاه. وصرخ الشيخ بهلول مستنجدا :

ـ يا خال علي . يا خال علي .

ثار الجالسون لنداء الشيخ بهلول . واذ سمعه منسي ، علت دقات قلبه ، وأسرع لنجدته صائحا ، بكل طبقات صوته :

. جاي يا ولد .. جاي

لكن منسي عندما وصل الى القنطرة ، كان الاولاد قد فروا كعادتهم.

(البداري) سليمان فياض

قريبا :

سلسلة القصص العالمية

وفيها تقدم دار الاداب اروع ما كتبه كبار ادباء العالم من القصص الطويلة والقصيرة .

انتظروا الحلقة الاولى :

قصص سارتر

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الجدار ـ الغرفة ـ ايروسترات ـ
صميمية ـ طفولة قائد ـ صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

والحلقة الثانية :

قصص كامو

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ البكم
الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة
عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب